

الباب الثالث

العلم والعمل حق المرأة في التعلم والتعليم

المرأة المسلمة - الجزء الأول

obeikandi.com

أولاً : طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة :

لقد أمرنا الله عز وجل بالعلم وحثنا عليه منذ أول كلمة نزلت على الرسول الكريم من كلمات وحى الله عز وجل في قوله تعالى :

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾^(١)

ولا يمكن المساواة بين العالم والجاهل في المنزلة والمكانة . يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾^(٢)

ومن توجيهات القرآن الكريم لرسول الله ﷺ - فضلاً عن غيره - أمره بأن يقول :

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾^(٣)

واعتبر رسولنا الكريم ﷺ طلب العلم فريضة وركناً من الإيمان بالله ، شأن المرأة في ذلك شأن الرجل سواء بسواء ، ففي الحديث الشريف عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

[طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ] . ولفظ المسلم في الحديث عام يشمل الذكر

والأنثى على السواء^(٤) .

(١) سورة العلق - الآيات من ١ - ٥

(٢) سورة الزمر - من الآية التاسعة

(٣) سورة طه - من الآية ١١٤

(٤) رواه ابن ماجه وغيره (الترغيب والترهيب ، ج ١)

فلمرأة حقها الكامل في التعلم والتعليم ، ويقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

[مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَبْتَغِي فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ
أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضاً بِمَا يَصْنَعُ ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي
الْأَرْضِ ، حَتَّى الْحَيَاتَانِ فِي الْمَاءِ ، وَفَضَّلَ الْعَالِمُ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ
النُّجُومِ ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهَمًا ، وَإِنَّا وَرَثُوا
الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ] (١) .

وروى الترمذى عن أبى أمامة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

[فَضَّلَ الْعَالِمُ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ عَلَى أَدْنَاكُمْ . . . إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ، حَتَّى النَّمْلَةُ فِي جُحْرِهَا ، وَحَتَّى الْحَوْتِ ، لَيَصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِي النَّاسِ
الْحَيِّرِ] .

فبالعلم تنضج العقول ، وترتفع النفوس ، وتصفو القلوب .

وفي حديث شريف للرسول ﷺ يقول :

[أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَجُودِ الْأَجْوَادِ ؟ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : سَوْدُ الْأَجْوَادِ ، وَأَنَا
أَجُودُ وَلَدِ آدَمَ ، وَأَجُودُ مَنْ بَعْدِي رَجُلٌ عَلِمَ عِلْماً فَنَشَرَهُ ، يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ ،
وَرَجُلٌ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى قُتِلَ] (٢) .

وروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

[إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ
وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ] .

فالمرأة المسلمة الناجحة في الحياة يجب أن تتمتع بثقافة إسلامية عالية ، كما يجب أن
تشغل فكرها بثقافات عامة في جميع مجالات الحياة حتى تستطيع أن تدبر أمور بيتها ،

(١) رواه أبو داود والترمذى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) متفق عليه .

يترعى زوجها وأولادها ، وتربيهم التربية الإسلامية العلمية الصحيحة بقدر ما نمت من ثقافات في مختلف نواحي الحياة .

وفي الحديث الشريف الذى يرويه الشيخان والترمذى عن النبى ﷺ أنه قال :
« مَنْ بُلِيَ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَىْءٍ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ » .

وهل هناك إحسان للبنات أعظم من تعليمهن تعليماً يرتقى بهن إلى مستوى التفكير والسلوك العلمى المنظم .

ومما يجب أن يتعلمه الإنسان - ذكراً وأنثى - التفقه فى الدين ، فقد قال النبى ﷺ :
« مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ » .

وقال عمر بن عبد العزيز : « مَا قَرِنَ شَىْءٌ بِشَىْءٍ أَحْسَنَ مِنْ حِلْمٍ إِلَى عِلْمٍ » .
وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه :

« تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ ، فَإِنَّ تَعْلِيمَهُ اللهُ خَشْيَةٌ ، وَطَلْبُهُ عِبَادَةٌ ، وَالْبَحْثُ عَنْهُ جِهَادٌ ، وَمَذَكَّرَاتُهُ تَسْبِيحٌ ، وَتَعْلِيمُهُ لِمَنْ لَا يَعْلَمُهُ صَدَقَةٌ ، وَبَذْلُهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةٌ » .
وقال على بن أبى طالب :

« كَفَى بِالْعِلْمِ شَرَفًا أَنْ كُلَّ أَحَدٍ يَدْعِيهِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ ، وَكَفَى بِالْجَهْلِ خِزْيًا أَنْ كُلَّ أَحَدٍ يَتَبَرَأَ مِنْهُ ، وَإِنْ كَانَ بِهِ مَوْسُومًا » .

وقيل لحكيم : لِمَ لَمْ يَجْتَمِعِ الْعِلْمُ وَالْمَالُ ؟ قال : لعز الكمال .

ولقد وصى رسول الله ﷺ بإكرام العلماء وإجلال المعلمين ، فروى الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ، ﷺ : « تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ ، وَتَعَلَّمُوا لِلْعِلْمِ السَّكِينَةَ وَالْوَقَارَ ، وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تَعَلَّمُونَ مِنْهُ » .

وروى أحمد والطبرانى والحاكم عن عبادة بن الصامت ، أن رسول الله ﷺ قال :
« لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلِّ كَبِيرَتَنَا ، وَيَرْحَمْ صَغِيرَتَنَا ، وَيَعْرِفَ لَعَالِنَا (حَقَّهُ) » .

وروى الطبراني في الكبير عن أبي أمامة ، أن رسول الله ﷺ قال :
[ثَلَاثٌ لَا يَسْتَخِفُّ بِهِمْ إِلَّا مُتَافِقٌ : ذُو الشَّيْبَةِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَذُو الْعِلْمِ ، وَإِمَامٌ
مَقْسِطٌ] .

وقد عوتب الإمام الشافعي على تواضعه للعلماء فقال :
أهينُ لهم نفسِي فهم يُكرمونها ولن تُكْرَمَ النفسُ التي لا تهبها
ورحم الله شوقي حين قال :

قم للمعلم وَفِّهِ التَّجِيلَا . كَادَ الْمَعْلَمُ أَنْ يَكُونَ رَسُولَا

وروى الترمذى عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال :

« الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى وَمَا وَالَاهُ ، وَعَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا » .

وقيل : قال النبي ﷺ : « سَأَلْتُ جِبْرِيْلَ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ :
طَلَبُ الْعِلْمِ ، قُلْتُ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : زِيَارَةُ الْعُلَمَاءِ » .

وروى الترمذى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ خَرَجَ فِي
طَلَبِ الْعِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى يَرْجِعَ » .

ومن مظاهر تشجيع الإسلام على العلم أن الرسول ﷺ في غزوة بدر سمح للأسرى
الأغنياء بالفدية بالمال ، ومن لم يستطع أطلق سراحه بلا مقابل ، كما افتدى بعضهم
نفسه بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة ، وكانت هذه البادرة إشارة طيبة
إلى اعتناء الإسلام بالعلم والحرص على طلبه ، والحرص على إدراكه بكل وسيلة .

ومن طريف ما يروى : أن رجلاً من ثقيف دخل على الوليد بن عبد الملك ، فقال له
الوليد : أقرأت القرآن « قال الأعرابي : لا يا أمير المؤمنين ، أمور شغلتنى عنه . قال
الوليد : أتعرف الفقه ؟ قال الأعرابي : لا . قال الوليد : أفرويت من الشعر شيئاً ؟
قال الأعرابي : لا . فأعرض الوليد عن الأعرابي . فقال أحد الجالسين : يا أمير
المؤمنين وأشار إلى الرجل . قال الوليد : أسكت فما معنا أحد .

أى أن الذى لم يقرأ القرآن ، ولم يعرف الفقه ، ولم يرو الشعر ، ولم يدرس الدين ، يكون كالعدم لا وجود له ولا اعتبار ، وإن كان موجوداً بشخصه ، وحاضراً بذاته^(١).

ثانياً: سعى المرأة المسلمة إلى التعلم والتعليم :

(أ) عهد النبوة والعهود التالية :

لقد أمر الله تعالى نساء النبي ﷺ بالتعلم والتعليم مساهمة في نشر دين الله ، قال

تعالى :

﴿وَأذْكُرَكُنَّ مَايَتَلَن فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَيْرًا﴾^(٢)

وكان النبي ﷺ ينيب السيدة عائشة رضى الله عنها في شرح المراد من حديثه لمن لاتعى مايقوله الرسول ﷺ ، مما في تصريحه إحراج للسائلة ، كما حدث عندما سألته امرأة من الأنصار عن غسلها من الحيض ، فأراها الرسول ﷺ كيف تغتسل ، ثم قال لها : خذى فِرْصَةً مِنْ مِسْكِ فَتَطَهَّرِي بِهَا . فقالت السائلةُ : كَيْفَ أَنْتَظَرُ بِهَا ؟ فأفهمتها السيدة عائشة بوضع القُطْنَةِ الْمُطَيَّبَةِ بِالْمِسْكِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْهُ دَمُ الْحَيْضِ إِتْمَامًا لِلطَّهَارَةِ .

وقد سعت المرأة المسلمة إلى العلم منذ بداية عصر النبوة .

ورُوي أن النساء كُنَّ يَحْتَشِدْنَ لِسَمَاعِ النَّبِيِّ ﷺ ويحضرن الصلاة الجامعة معه من أجل التعلم .

ونظراً لأن صلاة المرأة في بيتها أفضل من الصلاة في المسجد ، من أجل عدم الاختلاط والتزاحم ، فقد خصص النبي ﷺ لهن باباً يسمى حتى الآن في مسجد الرسول «باب النساء» .

(١) عيون الأخبار ، لابن قتيبة .

(٢) سورة الأحزاب - الآية ٣٤ .

فعن أبي سعيد الخدري ، رضى الله عنه ، قال :

قَالَتِ النِّسَاءُ لِلنَّبِيِّ ﷺ :

« غَلَبْنَا عَلَيْكَ الرَّجَالَ ، فَاجْعَلْ لَنَا يَوْمًا مِنْ نَفْسِكَ نَأْتِكَ فِيهِ تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ » . فقال هن الرسول : « اجْتَمِعْنَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا فِي مَوْضِعٍ كَذَا » فاجتمعن فأتاهن النبي ﷺ فوعظهن وأمرهن وعلمهن مما علمه الله (١) .

وفي حديث البخارى عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءَ الْأَنْصَارِ ، لَمْ يَمْنَعُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَقَقَّهْنَ فِي الدِّينِ » (٢) .

وكانت المرأة المسلمة فى العهود التالية لعهد الرسول ﷺ وصحابه ، على جانب كبير ودراية بالعلم فيما ينفعها فى دينها ويحفظ عليها سمعتها ونقاءها ، وبما يهيئها للحياة الزوجية الكريمة ، كما كانت على صلة قوية بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

ويصف شوقى أمير الشعراء ذلك فيقول :

ينقض حقوق المؤمنات	هذا رسول الله لم
لنساءه المتفقهات	العلم كان شريعة
ساة والشئون الأخرجات	رُضن التجارة والسياسا
لجج العلوم الزخرات	ولقد علث بيناته
نيا وتمزأ بالرؤاة	كانت سكينته تملأ الد
آى الكتاب البيئات	رؤت الحديث وفسرت

وعن أبى مالك الأشعري قال :

« يا معشر الأشعريين ، اجتمعوا واجمعوا نساءكم وأبناءكم حتى أريكم صلاة رسول

(١) شرح صحيح البخارى للكرمانى ، ج ٢ .

(٢) المصدر السابق .

الله ﷺ . فاجتمعوا وجمعوا أبناءهم ونساءهم ، ثم توضع أراهم كيف يتوضأ ، ثم تقدم وصفاً الرجال في أدنى الصف ، وصف الولدان خلفهم ، وصف النساء خلف الصبيان» (١)

فكان هناك في الصدر الأول من الإسلام مثقفات فضليات ، وفيهن من يفضل الكثير من رجال المسلمين ، كأمهات المؤمنين زوجات الرسول ﷺ . وكان من النساء من دخل في عداد الصحابة الذين عُرفوا بالإفتاء ، فيقول الأستاذ الشيخ «خلاف» في كتابه (علم أصول الفقه وتاريخ التشريع الإسلامى) : «إن عدد من عُرفوا من الصحابة بالإفتاء مائة ونيف وثلاثون ما بين رجل وامرأة» . وفي تاريخنا كثير من العلمات في الحديث والفقه والأدب وغير ذلك .

(ب) أمثلة من النساء العربيات المتعلمات :

ذكر البلاذري في كتابه (فتوح البلدان) أمثلة كثيرة من النساء العربيات المسلمات اللواتي تعلمن القراءة والكتابة والنحو ، وروين الحديث ، وكن يعلمن غيرهن ، وكان مما درس على النساء بعض مشاهير الرجال .

- فالحافظ بن عساكر يروى الحديث عن أكثر من ثمانين امرأة .

- وروى أن « الشفاء العدوية» - من قبيلة بنى عَدِيّ ، رهط عمر بن الخطاب - طلب إليها النبي ﷺ أن تعلم زوجته أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب تحسين الخط وتزيين الكتابة .

- وكانت أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر ، وأم المؤمنين أم سلمة - رضى الله عنهما - تقرأن وتكتبان .

ويروى عن أم الدرداء الفقيهة الزاهدة حضها على العلم وتفضيله على كل ما سواه فتقول :

(١) أخرجه أحمد وابن أبي شيبة (انظر : الدين الخالص ، ج ٣) .

« لقد طلبتُ العبادة في كل شيء ، فما أصبتُ لنفسي شيئاً أشفى من مجالسة العلماء ومذاكرتهم » . ولقد وصفها النووي في كتابه «تهذيب الأسماء» بقوله : «اتفقوا على وصفها بالفقه والعقل والفهم» . وقد عاشت في أيام معاوية ، وكانت تقيم ستة أشهر في بيت المقدس ، وستة أشهر في دمشق .

واشتهرت طبيبة بنى عواد بالطب في الجاهلية والإسلام ، فكانت - فضلاً عن معالجة الأبدان - تُحسن طب العيون والجراحة .

كل هذه الأمثلة تعطينا مدى التصور العام للثقافة التي يمكن أن تخوضها المرأة المسلمة .

(ج) لا تظلموا الإسلام :

إن تخلف المرأة علمياً في الجيل الماضي لم يكن الأصل فيه محاربة الإسلام لتعليم المرأة ، وإنما كان مظهرًا من مظاهر الجهل وسوء فهم حقيقة الإسلام الذي جاء أصلاً لِيُنِيرَ الْعُقُولَ ، ويُهْدِبَ النفوس ، ويُجْرِجَ الناس من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان والعلم .

وصدق الله عز وجل حيث يقول :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾^(١)

وقد بينَّ الله لنا الآيات لعلنا نتفكر :

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾^(٢)

وتكرر قوله تعالى عدة مرات :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾^(٣)

(١) سورة الأنعام - من الآية ٥٠ . (٢) سورة البقرة - من الآية ٢٦٦ .

(٣) سورة الرعد ، من الآية الثالثة - وسورة الزمر ، من الآية ٤٢ - سورة الجاثية ، من الآية الثالثة عشرة . وسورة الروم من الآية الحادية والعشرين .

فلا تظلموا الإسلام بأنه سبب تخلفنا ، فالإسلام مفترى عليه .

يقول الشاعر الحكيم معروف الرصافي :

يقولون في الإسلام ظلماً بأنه يَصُدُّ ذَوِيهِ عَنِ طَرِيقِ التَّقَدُّمِ

فإن كان ذا حَقًّا فكيف تقدمت أوائله في عهدهما المتقدِّم ؟

وإن كان ذنب المسلم اليوم جهله فماذا على الإسلام من جهلٍ مُسْلِمٍ ؟

ثالثاً : ما يجب أن تتعلمه المرأة :

لقد كان من الأهداف الكبرى للرسالة المحمدية - على صاحبها أفضل الصلوات وأتم التسليات أن : يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيَهُمْ حَيْثُ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾^(١)

وقال تعالى :

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾^(٢)

والمعرفة نوعان ، نوع من صنع الله عز وجل ، وهو الشطر الإيماني للمعرفة ، ونوع من كسب الإنسان عن طرق العقل ، وهو الشطر المادي للمعرفة ، فأما النوع الذي هو من صنع الله فهو ما أوحى به الله عز وجل إلى رسوله الكريم ، عليه الصلاة والسلام ، وهي المبادئ الخاصة بالعقيدة والأخلاق والتشريع ، والقوانين التي ينتظم

(١) الآية الثانية من سورة الجمعة .

(٢) سورة آل عمران - الآية ١٦٤ .

بها المجتمع أفرادًا وجماعات ، وهى علوم الدين ، وجوهر كل ذلك هو التوحيد .
وأما النوع الذى هو كسب الإنسان عن طريق العقل فمعرفته تتأتى عن استنتاج
العقل من نتائج وسائل المعرفة ، وهى الملاحظة والتجربة والاستقراء ، وهذا النوع من
المعرفة هو مظهر الحضارة المادية ، وهو علوم الدنيا ، كالتب والهندسة والزراعة .
لذلك يجب على المرأة المسلمة ، وعلى كل إنسان مسلم أن يجمع بين نوعى المعرفة فى
توازن واعتدال .

فإن من علامات الساعة التى ذكرها رسول الله ﷺ فى حديث شريف : « أَنْ يُرْفَعَ
الْعِلْمُ وَيُظْهَرَ الْجَهْلُ » والعلم المقصود هنا هو العلم بالله ، أى العلم بالأساس الأول
للعقيدة والخير والحق . وعلى أى الأحوال فإن التعليم الحقيقى هو إزالة أمية الحياة ،
وإزالة الجهل بالسلوك الإنسانى السليم .

(أ) فرض عين وفرض كفاية :

يقول الإمام الشيخ محمد عبده :

« إن ما يجب على المرأة المسلمة أن تتعلمه من عقائد دينها وآدابها وعبادته محدود ،
ولكن ما يطلب منها أن تتعلمه لنظام بيتها وتربية أولادها ونحو ذلك من أمور الدنيا -
كأحكام المعاملات - يجب ألا يكون محدودًا .

أى الأمرين أفضل فى نظر الإسلام ؟

أتمريض المرأة لزوجها إذا هو مرض أم اتخذ ممرضة أجنبية تطلع عليه وتكشف من
أحواله ما لا يجب هو أو دينه أن تراه ؟

وهل يتيسر للمرأة إذا كانت جاهلة بفنون الطب والتمريض أن تُمرَّص زوجها ، أو
تقوم بتربية أبنائها تربية تحفظ عليهم صحتهم وعقولهم ؟ » .

إن كلمة الإمام الشيخ محمد عبده فيما يجب أن تتعلمه المرأة توضح أن التعليم الذى
يوجهه الدين على المرأة ليس مقصوراً على تعليم العقائد والآداب ، والعبادات فقط ،

وإنما يتناول كل مناحى الحياة التى تتصل بها وتستطيع القيام بأعبائها . كما يجب على كل إنسان مسلم أن يتعلم كل ما يتصل بأمور دينه وأمور دنياه . وقد أوضح العلماء أن ما تتعلمه المرأة نوعان :

فرض عين : وهو الذى تتعلم به أسس وقواعد العبادات والعقائد والسلوك الإسلامى العام ، وأسس تربية الأولاد وتدبير المنزل .

فرض كفاية : وهو نوع التعليم الذى تحتاج إليه الأمة من طبيبات لأمراض النساء والأطفال ، وحكيمات وممرضات ، ومدرسات لتعليم البنات ، إلى غير ذلك من أنواع التعليم الذى يلزم للمرأة .

فيجب على المرأة المسلمة أن تتجه بثقافتها وتعليمها إلى ما يخدم وظيفتها الطبيعية ، وهى رعاية البيت ورعاية الأولاد دينياً وثقافياً ، واجتماعياً وعلمياً ، وغذائياً وصحياً . فالوظيفة الطبيعية للمرأة فى البيت هى تربية الأجيال ، وتربية الأبناء والبنات على الخلق القويم ؛ ليكون البيت المسلم صورة مشرفة يفخر ويعتز بها كل إنسان ، ويقول الشاعر الحكيم :

الأم مَدْرَسَةٌ إِذَا أَعَدَّتْهَا أَعَدَّتْ شَعْبًا طَيِّبَ الْأَعْرَاقِ

فالأُم فى بيتها مُربِّية ومُعَلِّمة ، والأُم المتعلمة أقدر على متابعة أولادها وإدراك حاجاتهم النفسية والعقلية . كما أن المرأة المتعلمة أقدر على تفهم الحياة وطبيعة المجتمع ، والقيام بدور فى سبيل المشاركة فى نموه وارتقائه وسعادته .

وتقول باحثة البادية «مَلَك حَفْنَى ناصف» فى محاضرة ألقته ونشرتها مجلة المنار : «إن الأم مهما تعلمت ، وبأى حرفة اشتغلت ، فلن ينسيها ذلك أطفالها ، أو يفقدها عاطفة الشفقة والأمومة ، بل العكس ، إنها كلما تنورت أدركت مسؤوليتها» .

« العلم منير للعقل على أى حال ، سواء عمل به أو لم يعمل ، ولو لم يكن للعلم لذة فى ذاته لما اشتغل بتحصيله الملوك وهم واثقون أنهم لن يكونوا مهندسين ولا تجاراً .

« إن المدارس مهما اجتهدت في تثقيف عقول النشء أو تهذيبها فإن للمنزل تأثيرًا خاصًا على الأطفال » .

(ب) على المرأة أن تتعلم ما يؤهلها لوظيفة الزوجة والأم :

لاشك أن الطبيعة إذ فرقت بين الرجل والمرأة أرادت أن يكون للرجل اختصاص في الحياة غير اختصاص المرأة ، وما اختلاف التكوين الجسدي لهما إلا ليتجه كُلُّ منهما إلى ما أُعِدَّ له ؛ ولذا فمن الأسلم والأليق بفطرة الحياة أن تثقف المرأة في مهمتها التي أعدتها لها الطبيعة . فيجب أن توزع المعارف والعلوم على الذكر والأنثى بحسب الاستعداد الخُلقي الذي حددت به الطبيعة لكل منهما مهمته في الحياة .

إن المرأة تُخلقت لتكون زوجة وأمًّا ، هكذا فطرها الله :

﴿ فِطَرَتُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾^(١)

وفي إرادته - سبحانه وتعالى - الخير كله . فيجب أن تثقف بثقافة الزوجة والأم ، وتعلم من المعارف ما يزكى فيها قانون الزوجية وقانون الأمومة ، ويجب عليها أن تتعلم كيف تسوس الطفل ، ليس فقط سياسته في رضاعه وطعامه وشرابه ولباسه ونومه ومرضه ، ولكن سياسة عقله وخلقه ؛ فالطفل جهاز حي لا قِطُّ بغير وعى - لكل ما يبدو من أمه من سمات الفكر والخلق .

على المرأة أن تتعلم من المعارف ما يجعل سلوكها سياسة تربوية مرتبة للإيحاء بأقوم مناهج الفكر والخلق .

إن الأنوثة ليست مجرد أعضاء تختلف بها المرأة عن الرجل ، إنما هي قبل ذلك قوانين روحية ، ومواهب واستعدادات تتباين بها إنسانيتها من إنسانيتها ، ومزاجها النفسي من مزاجه النفسي ؛ لتؤدي للحياة أئمن وأجل الوظائف ، وظائف الزوجية والأمومة .

(١) سورة الروم - من الآية ٣٠ .

فإذا كانت ثقافة البنت دائرة حول إعدادها زوجة صالحة ، وأماً راشدة ، فذلك اختصاص طبيعتها ، وفيه الخير كل الخير .

أما أن تلحق الفتاة بكليات الهندسة والزراعة والفلك والحقوق والفلسفة وما شابهها ، فلن تجنى منه إلا أنها خرجت من نطاق الأنوثة التي خصتها بها الطبيعة إلى استرجال هي أول من ينكره ، ولن نستطيع أن نعى ذلك إلا إذا بلغنا من الإدراك ما نفقه به الأهداف التي أرادها الخالق سبحانه وتعالى بخلق الأنثى ، وزودها من أجلها فيما زودها به من خصائص نفسه وإنسانية .

إن شيئاً من تلك العلوم ليس محرماً على البنت في الإسلام ، ولكن المصلحة أن تدرس ما يعود عليها بالمنفعة في مهمتها الأصلية .

إن العلم المطلوب هو العلم بدينها ، وكل معرفة تنير ذهنها ، وتقوم ضميرها ، وتصلها بأفاق الحياة العامة ، وتبصرها بأصول مهمتها وأهداف زوجيتها وأمومتها الروحية والاجتماعية ، وواجبها في توفير الظروف الحسية والنفسية لعمل كل من قانوتي الزوجية والأمومة ، ومن حقيقة إنسانيتها ورسالتها التي يجب أن تحققها في الحياة^(١) .

ومن ناحية أخرى فإنه يجب على الزوج أن يفقه زوجته في أمور دينها ، خصوصاً بالنسبة لأحكام الطهارة ، وما يتعلق كذلك بالحيض والنفاس ، وإلا فإنها ستكون جاهلة بأهم أمور دينها ، على أن يكون الزوج نفسه قدوة طيبة لزوجته في كل سلوك إسلامي ، والتمسك بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ .

قال أهل العلم : ومتى كان الرجل قائماً بتعليم ما يجب لزوجته امتنع عليها الخروج لسؤال العلماء ، وكذا إن أناب عنها في السؤال وعرفها الجواب ، فإن لم يكن ذلك فلها الخروج للسؤال ، بل واجب عليها ذلك ، ويعصى الرجل بمنعها .

وإذا أهملت المرأة حكماً من الأحكام الواجبة ولم يعلمها الرجل إياه شاركها في الإثم ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

(١) الإسلام والمرأة المعاصرة للبهى الخولى (بتصرف) .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْمًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾^(١)

فالزوج مكلف تعليم زوجته جميع ذلك .

ويقول تعالى :

﴿ وَأَمْرًا أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ ﴾^(٢)

فأول واجبات الرجل المسلم أن يحول بيته إلى بيت مسلم ، وأن يوجه أهله إلى أداء الفريضة التي تصلهم بالله ، فتوحد اتجاههم العلوى في الحياة ، وما أجمل الحياة في زحاب بيت أهله كلهم يتجهون إلى الله . .

وعموماً ، فإن العلوم التي يمتدحها الإسلام ويحث عليها هى العلوم التي توصل إلى الحق سبحانه وتعالى ، وتوصل إلى الصراط السوى في السلوك . . وتصل إلى الحق سبحانه وتعالى عن طريق كتاب الله ، وعن طريق التدبير والنظر المتأمل في هذا الكون العظيم الذى يدل على عظمة خالقه جل وعلا .

ويتدبر كتاب الله ، والعلوم القرآنية - علوم الدين ، والعلوم الشرعية والعقيدية التي تبصر الإنسان المؤمن بكتاب الله - يزداد إيمان الإنسان ، كما تزداد استقامته في سلوكه ، ويصل إلى الصراط السوى في السلوك عن طريق الهداية الإلهية التي جاءت بها رسالة القرآن ، إذ تضمنت ما ينهى الله عنه ، وما يأمر الله به .

وبجانب كتاب الله - للتعرف على المولى الحق سبحانه وتعالى - يوجد كون الله الذى نعيش فيه ، يوجد الإنسان فى خلقه وتركيبه ، وتوجد الأرض ، والبحار ، والسماء ، والكواكب ، والجبال ، والسهول ، والأمطار ، والأنهار ، والآبار ، والزراعة ، والأنعام ، والحديد ، والصناعة . . الخ .

والله - سبحانه - إذ يطلب عن طريق الرسول - عليه الصلاة والسلام - إلى الناس أن

(١) سورة التحريم - من الآية السادسة .

(٢) سورة طه - من الآية ١٣٢ .

يؤمنوا بها في كتاب الله ، يطلب إليهم في الوقت نفسه أن ينظروا إلى مافي الكون من نظام وتديبر ونعم لا تُعدُّ ولا تُحصَى ، وأن ينظر الإنسان ويتفكر في خلقه .

وبالنظرة إلى الكون نشأت جملة من العلوم ، علوم إنسانية ، وعلوم اجتماعية ، وعلوم طبية ، وعلوم فلكية . . إلخ . . علوم تبحث في هذا الكون وتنتهى في بحثها إلى الإيمان بيأله عظيم ، قادر ، حكيم يُحكِّمُ تدبير خلق هذا الكون ، ويمسك نظامه . وهكذا فعلم الكون توصل إلى الإيمان بالله .

وتقديراً لنوعى العلم : الدين والكون يقول النبي ﷺ في علم الدين :
« مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ » .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه في علم الكون :

[مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ] .

ويقول ابن قيم الجوزية في كتابه (إعلام الموقعين عن رب العالمين) :

« إنَّ ما يجب أن يتنافس فيه المتنافسون المسلمون هو العلم النافع والعمل الصالح اللذان لا سعادة للعبد إلا بهما ، واللذان بسببهما انقسم الناس إلى مرحوم ومحروم » .

ولما كان العلم للعمل قريباً وشافعاً كان أفضل العلوم هو التوحيد ، ولا سبيل إلى اقتباسه إلا من حياة الرسول ﷺ .

وقال الإمام الشافعى رحمه الله : « مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ عَظُمَتْ قِيَمَتُهُ ، وَمَنْ نَظَرَ فِي الْفَقْهِ نَبَّلَ قَدْرُهُ ، وَمَنْ كَتَبَ الْحَدِيثَ قَوَّيْتُ حُجَّتَهُ ، وَمَنْ نَظَرَ فِي اللُّغَةِ رَقَّ طَبْعُهُ ، وَمَنْ نَظَرَ فِي الْحِسَابِ جَزَلُ رَأْيِهِ » .

رابعاً : يجب أن يكون التعلم والتعليم باسم الله :

(أ) اقرأ باسم ربك :

لم يكن مصادفة أن تكون أول كلمة نزلت وحياً من الله عز وجل على قلب رسوله الكريم محمد ، ﷺ هي كلمة : «اقرأ» في سورة العلق .

ولقد كانت دعوة رسولنا ﷺ هي ما جاء في قوله تعالى :

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾^(١)

وقد كَرَّمَ الله عز وجل العلماء ، ورفع من منزلتهم في قوله تعالى :

﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾^(٢)

ويقول عز وجل أيضًا :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾^(٣)

وفي هذه الآية الكريمة تقول حاشية الصاوي على الجلالين : المعنى : « إنها يعظم من العباد العلماء ، وإنما كان ذلك لكونهم أعرف الناس بربهم ، وأتقاهم له » .

لذلك فإن سمة الإسلام منذ ميلاده هي سمة العلم ، وكيف لا ، ومن تساوى يومه فهو مغبون ، ومن لم يكن إلى زيادة فهو إلى نقصان ، وهل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ .. إنَّ مداد العلماء المتقين لِيُوزَنَ في ميزان الخير والحسنات بدم الشهداء ، فيرجح مداد العلماء . والعلماء هنا هم أهل المعرفة بسنن الله في الكون وفي الناس ، فتشمل العلم العام بكل فروعه . وقد حث الإسلام على العلم ، قال ﷺ :

« مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ . وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ، وَحَتَّى الْحَيَاتَانِ فِي الْمَاءِ ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ »^(٤) .

(١) سورة طه - من الآية ١١٤ .

(٢) سورة المجادلة - من الآية الحادية عشرة .

(٣) سورة فاطر - من الآية ٢٨ .

(٤) رواه أبو داود والترمذي .

لذلك اندفع المسلمون الأوائل إلى البحث في جميع ميادين الحياة الروحية والعقلية والمادية ، ونشأ عن ذلك حضارة إسلامية عظيمة أنتجت أمثال جابر بن حيان في الكيمياء ، وابن الهيثم في الطبيعيات ، وأبو بكر الرازي في الطب ، وابن سينا في الطب وفي الفلسفة ، والغزالي في الجانب الروحي ، وابن رشد في الفلسفة العقلية ، وابن خلدون في الاجتماع والتاريخ ، وكثير غيرهم من علماء المسلمين ..

إن الله سبحانه وتعالى قد امتنَّ علينا في آيات كثيرة من القرآن الكريم بأنه عز وجل سَخَّرَ لَنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَسَخَّرَ لَنَا الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَيْنَهُمَا .

وهذا الامتنان هو دعوة صريحة إلى المسلمين ليستجيبوا للتوجيه الإلهي فَيَسَخَّرُوا كُلَّ ذَلِكَ بِالْعِلْمِ وَالْمُلاحِظَةِ وَالتَّجْرِبَةِ لِنَفْعِ الْإِنْسَانِيَةِ . والقرآن الكريم وهو يدعو إلى تسخير العلم المادى فى أى مجال يوجه الإنسان إلى أن يكون هذا العلم المادى فى طريق الله وباسم الله .

فإن الأمر الإلهي بالثقافة والعلم فى قوله تعالى : « اقرأ » اشترط أن تكون القراءة والعلم باسم الله :

﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾^(١)

لذلك فإنَّ الهدف الأول للعلم فى الإسلام - سواء للإنسان المسلم أو الإنسانية المسلمة - هو إرضاء الله تعالى ، وإسعاد الفرد ذاته وأسرته ومجتمعه ، والإنسانية جمعاء .. هذا هو العلم الذى يدعو الله ورسوله إليه .

فإذا تجردت القراءة ، وتجردَ العلم ، وتجردَ التعلم لله تعالى ، وكان هدفه الأول والأخير هو ابتغاء وجه الله تعالى ، مصدر الخير والنور ، كان خيراً ، وكان نوراً فى جميع الأرجاء والأزمان .

كما أن الإسلام وهو يوجه الإنسان إلى العلم المادى فى طريق الله لا يقف عند ذلك ، وإنما يوجه الإنسانية أيضاً إلى مصدر آخر للعلم والمعرفة ، وهو القلب والروح

(٢) الآية الأولى من سورة العلق .

والبصيرة . فالإسلام يوجه الإنسانية إلى المعرفة الإشرافية أو الكشفية أو الإلهامية ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (١)

فالسمع والبصر هما أساس العلم المادى ، القائم على التجربة والملاحظة ، أما الفؤاد فهو أساس العلم الإلهامى . . إن الله سبحانه وتعالى يوجه المسلم إلى الملاحظة والتجربة ، ويوجهه أيضًا إلى الاستشراف للهداية والنور القلبي عن طريق الخلق الكريم ، والتقوى ، والإخلاص وحب الإنسانية ، والمعاونة فى الخير .

فالإسلام يجعل العلم أساساً للخير والسعادة البشرية ، ويجعل العلم فى إطار الأخلاق ، وبذلك يكون العلم قُرْبَى وعبادة إلى الله . فليكن ما تتلقينه أيتها الفتاة المسلمة من علم دينى ودنيوى باسم الله ، وفى إطار ما جاء بكتاب الله وسُنَّة رسوله ، وليس باسم حضارة المادة والجنس ، حضارة الغرب التى تسير على مبدأ أن العلم لا صلَّة له بالأخلاق .

أما ما تنادى به بعض الكاتبات المعاصرات من وجوب تعليم الفتيات والفتيات لأصول العلاقات الجنسية ، وتشجيع التحرر الجنسى الكامل للشابات والشباب بادعاء العلم - كما هو الحال فى الغرب - فستكون نتيجة الوصول بالعلاقات الجنسية الشريفة إلى درجة الإسفاف والابتذال ، وبالأسرة إلى التفكك والانحيار، وبالمراة إلى الامتهان والإذلال . فلتحذرى أيتها الفتاة المسلمة هذه الأبواق الضالَّة المُضِلَّة ، ولتكشفى حقيقة تلك الشعارات الكاذبة التى هدفها الأساسى القضاء على مقومات ومبادئ المجتمع الإسلامى الطاهر الشريف .

(ب) يجب أن يكون كل شىء باسم الله :

والقرآن الكريم لا يقصد بأول آية نزلت من وحى الله وهى قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ لا يقصد القراءة فحسب ، والتعليم والتعلم فحسب ، وإنما التعلم والقراءة رمز

(١) سورة الإسراء - من الآية ٣٦ .

لكل ما يفعله الإنسان - ذكراً كان أو أنثى - في الجانب الإيجابي ، وكل ما يتركه الإنسان في الجانب السلبي .

أيتها الفتاة المسلمة : اتقوى باسم ربك . . تحركى باسم ربك . . اعلمي باسم ربك . كل شيء باسم الله افعليه وآتية ، وكل شيء لا يكون باسم الله لاتفعليه ولا تأتية ،
نما في قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ^(١) ﴾

فكل ما لم يُذكر اسم الله عليه فهو فسق . وكل شيء لا يكون لوجه الله فهو فسق .
أيتها الفتاة المسلمة : لو التزمت بذلك فستكونين على قمة الإخلاص والإحسان ،
وعلى قمة التقوى والصدق .
ومادامت الحياة كلها لله ، فليس هناك مجال للكذب والرياء والنفاق والخديعة ،
إرادة غير الله تعالى بالأعمال .

ولذلك وضح الله تعالى الغاية من خَلَقَ الإنسان في قوله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ^(٢) ﴾

لذلك يجب أن يكون تعليمك وتعلمك ، وأن تكون حياتك في كل اتجاهاتها عبادة
لله ، وأن تتبغى بأعمالك كلها وجه الله . وصدق رسول الله ﷺ حين يقول :
[إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ
وَرَسُولِهِ فَهِيَ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا
فَهِيَ هِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ] ^(٣) .

فإذا كانت كل أعمالنا وأقوالنا لله عز وجل فنسئمو حتى نصل إلى أن تكون حياتنا
كلها - من علم وعمل وقراءة وكتابة ، وكل نواحي الحياة - عبادة لله الواحد القهار :

(١) سورة الأنعام - من الآية ١٢١ .

(٢) سورة الذاريات - الآية ٥٦ .

(٣) حديث متفق عليه .

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ ،
وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾^(١)

فيجب علينا أن نبدأ كل شيء باسم الله ، والبداء باسم الله هو الأدب الذي أوحى الله لنبيه ﷺ ، فالله سبحانه هو الموجود الحق ، الذي يستمد منه كل موجود وجوده ، ويبدأ منه كل مبدوء بدؤه ، فباسمه يكون كل ابتداء ، وباسمه تكون كل حركة وكل اتجاه ، فإليه سبحانه المرجع والمآل ، وهو سبحانه المستحق لأن يُستعانَ به في مجامع الأمور ، فهو المعبود بحق ، وهو مولى النعم كلها عاجلها وآجلها ، سبحانه وتعالى ، مالك الملك ذو الجلال والإكرام .

أمر يجب أن تراعيها المعلمة والمربية :

(أ) الأسوة السلوكية :

أيتها الفتاة المسلمة ، إذا كان يجب عليك أن يكون تعليمك في طريق الله وقراءتك وكل أعمالك باسم الله ، فيجب عليك أيضًا - وأنت أم ومربية - أن يكون تعليمك لأولادك وتعليمك لجيل من بنات جنسك في طريق الله ، وباسم الله ، وذلك بأن تكوني الأسوة السلوكية الحسنة ، وتكوني مثلاً يُحتذى لأولادك وبنات جنسك ، فالعلم لا بد أن يسير إلى تطبيق عملي ، والتطبيق العملي لكي يكون سليماً ويؤتي ثماره لا بد أن تكون هناك الأسوة السلوكية ، ولا بد أن يجد الأولاد في الأم والمعلمة الأسوة الحسنة حتى يكون العلم مطابقاً للسلوك وليس منفصلاً عنه ؛ لأنه إذا انفصل العلم عن السلوك فستكون الطامة الكبرى ، وسيكون الجهد مضاعفاً . وحيث إن التقليد عنصر من عناصر العلم فستتعلم البنت عن طريق التقليد السلوك الخاطيء من أمها أو مربيتها .

إن البنت التي تتعلم من أمها أو مربيتها أن السفرور والخلاعة هي الشيء الطبيعي ، وأن الذهاب «للكوافير» من علامات الرقى والتحضر ، وأن إهمال الصلاة لاشيء فيه ،

(١) سورة الأنعام - الآيات ١٦٢ ، ١٦٣ .

ستنطبق هذه التصرفات وهذا السلوك في أعماقها ، فإذا جئنا بعد ذلك محاولين تعليمها سلوك وأخلاق الإسلام الحنيف لتكون الفتاة المسلمة الملتزمة التي تفخر وتعز بتعريفها ودينها قولاً وسلوكاً فإنه سيلزم حينئذ أن يؤدي العِلْمُ - وهو وسيلة للتربية - مرحلتين :

* مرحلة علاج الجهالة ، بإزالة المعلومات الخاطئة والسلوك المنحرف الذي تعلمته نتيجة التقليد .

* ثم مرحلة إزالة الأمية ، وذلك بتعليم القواعد الصحيحة والأساس السليم للسلوك الإسلامى .

يقول تعالى :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ (١)

ويجب أن نلاحظ أن قصارى ما فى علوم الدنيا - كالطب أو الهندسة أو الزراعة - أن تقوم معلمتها بتوصيل المعلومات إلى ذهن الطالبة ، ثم بعد ذلك فإن الطالبة نفسها ستقبل عليها وتمسك بها وتستزيد منها ؛ لأنها ستفيدها فى مسائل دنياها . أما علم الدين فالطالبة لاتلقى مجرد الإيمان بالله ، وإنما تطالب بعد إيمانها بأن تفعل بعض أشياء ولاتفعل أشياء أخرى ؛ لذلك فليس كافياً من المعلمة أن تعلم الدين وأحكامه ، ولكن عليها أن تحمل نفسها على أداء ما يطلب منها الدين حتى تكون مثلاً يحتذى .

فعلم الدين إذن فيه كلامٌ يُقال ، وفيه من جانبٍ آخر سلوكٌ يُفعل ويُؤدى ، ولكى يتمو الدين وتتحقق ثماره فلا بد على مَنْ تتعلمه أن تطبقه حتى نجد التى تُعَلِّم وتطبق تعاليمه فى الوقت نفسه .

فالأزمة بالنسبة للإسلام ليست أزمة علم به ، وإنما أزمة تطبيق له ، ويرجع إخفاق تدريس مناهج التربية الإسلامية إلى أن علماء التربية جعلوا الإسلام علماً كبقية العلوم ، يكفى فيه إيصال المعلوم إلى المتعلم .

(١) سورة النحل - من الآية ٧٨ .

فهذا وحده لا يكفي ؛ لأنه بالإضافة إلى العلم يُطلب منه أن يخضع سلوكه لما يُطلب منه ، بما في ذلك افعُلْ كذا ، ولا تفعلْ كذا .

فالإخفاق ليس في العلم ، ولكن في التطبيق ، حيث سيؤثر في النفس اختيار حركة عن حركة ، واختيار سلب عن إيجاب . وعليه فيجب على مَنْ يُعَلِّمُ أَنْ يَكُونَ مُطَبِّقًا لِمَا يُعَلِّمُهُ حَتَّى تَوَجِدَ الْأَسْوَةَ الْحَسَنَةَ فِي السُّلُوكِ .

وعلة المشكلة أننا نعنى بالعلم ولا نعنى بنموذج التطبيق السلوكي ، مما يطبع النشء في قضية الدين على أن هناك عِلْمًا يُعَلِّمُ فقط ولا مدلول له غير هذا ، وسلوكًا يحكم ، فمستولية العالم كبيرة وجسيمة ، وأن العالم إذا زلَّ زَلَّ بَزَلَّتْهُ عَالَمٌ . وشنع الله تعالى على ذلك بقوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾^(١)

وقد صور الرسول ﷺ موقف العالم الذي يأمر الناس بالخير ولا يقوم بأدائه تصويرًا معبرًا فيما رَوَى عن أسامة بن زيد ، رضى الله عنهما ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْطَابُ بَطْنِهِ ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ فِي الرَّحَا ، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ : يَا فُلَانُ ، مَا لَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ فَيَقُولُ : بَلَى ، كُنْتُ أَمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ » .

ومن الآثار الواردة فيما يتصل بقارئ القرآن الذي لا يعمل بما قرأ ، قول بعض السلف : « رَبُّ تَالٍ لِلْقُرْآنِ وَالْقُرْآنُ يَلْعَنُهُ » . يَقُولُ : أَلَا لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ ، وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ » .

وفي الحديث الصحيح : [الْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ] .^(٢)

(١) سورة الصف - الآيات : ٢ ، ٣ .

(٢) رواه الشيخان .

كل ذلك يوضح لنا مدى أهمية الأسوة السلوكية ومدى أهمية أن تكون الأم والمربية والمعلمة مثلاً يُحتذى ، وأسوة حسنة لأولادها وتلميذاتها ، علماً وعملاً ، وتطبيقاً وسلوكاً .

(ب) يجب ألا ينفصل العلم عن الله :

كما يجب على المرأة المسلمة وهي تُعلم جيلاً من الفتيات وتربيهن ألا تغفل دينها عن منهج تربيتها في أى مادة من المواد ، وفي أى فن من الفنون : في الطبيعيات ، وفي الكيمياء ، وفي الجغرافيا ، وفي التاريخ ، وفي علم النبات ، وفي علم الحيوان ، وفي علم الفلك ، وفي كل أنواع العلوم والفنون ، وذلك حتى لا ينفصل العلم الذى يُعَلِّمُه المرءون والمربيات في أى لون من ألوانه عن الله عز وجل .

والعلم لا يخلق الحقائق ، ولكنه يكشف الحقائق الموجودة فعلاً ، والقرآن الكريم يتكلم عن حقائق واقعة ملموسة ، سواء عرفها الإنسان أو لم يعرفها بعد ، ووسيلة الإنسان إلى محاولة معرفة هذه الحقائق يأتى عن طريق إعمال النشاط الذهنى بالملاحظة ، والتجربة ، والاستقراء .

إن القرآن الكريم كتاب الله وآياته ، والكون آية من آيات الله ، وهو الكتاب الحق الذى لا يأتىه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد نزل القرآن الكريم مناسباً لكل العصور ، وكل عصر يأتى له القرآن بخير جديد فى الفكر ، وفى تأكيد الإيمان ، وخير جديد فى مواجهة تطورات الحياة ليعيش الإسلام ويبقى ديناً لكل العصور ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

خامساً : العلم لا نهاية له :

(أ) مواصلة التزود بالعلم :

إن طلب العلم ليس له حدود يمكن الوقوف عندها ، وإنما على الفتاة المسلمة أن تواصل قراءتها وتعلمها وتثقفها فى شتى أنواع الثقافات والعلوم ، وخاصة فيما يتعلق منها بمجالات وظائفها الطبيعية الأساسية كزوجة وكأم حتى تزداد خبراتها علماً وعملاً

ويتسع أفقها ، وينعكس ذلك كله بالخير عليها وعلى زوجها وأولادها وبيتها ومجتمعها ويجب على الفتاة المسلمة ألا تغتر بعلمها مهما أوتيت من علم ، وحصلت على درجات علمية ، بل يزيد بها ذلك تواضعاً للخلق ، وخشية للخالق عز وجل .

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾^(١)

ويوصينا الرسول ﷺ بمواصلة التزود بالعلم طوال حياتنا :
[خُذِ الْعِلْمَ مِنَ الْمَهْدِ إِلَى اللَّحْدِ] .

ويقول الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه :
[لَا يَزَالُ الرَّجُلُ عَالِمًا مَا طَلَبَ الْعِلْمَ ، فَإِنْ ظَنَّ أَنَّهُ قَدْ عَلِمَ فَقَدْ جَهِلَ] .
ويقول الإمام الشافعي رضى الله عنه :

كلما أدبني الدهر — رُأَني نَقَصَ عَقْلِي
وإذا ما زدتُ علماً — زادني علماً بجهلي
ويقول الشاعر الباكستاني محمد إقبال :

قالت النفس قد علمت كثيراً قلت هذا الكثير نَزَرَ يَسِيرُ
تملاً الكنوزَ غرفةً من محيط فيرى أنه المحيط الكبير
وقال صلوات الله وسلامه عليه : [إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا] .
قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ
قَالَ : « مَجَالِسُ الْعِلْمِ »^(١) .

(ب) عظات وعبر من قصص الأنبياء :
سليمان والهدد :

يوضح لنا القرآن الكريم في قصة سيدنا سليمان عليه السلام أن الإنسان مهما أوتي

(١) سورة فاطر - من الآية ٢٨ .

(٢) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس .

من العلم فلن يحيط إلا بالقليل . فسلیمان علیه السلام آتاه الله علماً كثيراً ، وكان على معرفة واسعة وعميقة ، وقال عز وجل مبيناً ما منح سبحانه سليمان وأباه داود من العلم :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾^(١)

ومع ذلك جاء الهدهد الطائر الصغير الضعيف وقال لسليمان النبي الكريم الملك العظيم :

﴿ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ حِطُ بِهِ ﴾^(٢)

نعم ، أحاط الهدهد الطائر الضعيف بما لم يحيط به نبي الله . ويعطينا القرآن الكريم عظة وعبرة من هذه الواقعة ، وهي أن العلم لا نهاية له ، وأن الإحاطة به مستحيلة ، والناس يتقاسمون بعضه ، يحيط منهم فريق بما لم يحيط به الآخرون ، وهم جميعاً لا يحيطون إلا بالبعض القليل .

وصدق الله العظيم حيث يقول :

﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾^(٣)

موسى والخضر :

كما يوضح لنا القرآن الكريم قصة أخرى لنبي من أنبياء الله التقى بعبد من عباد الله أعلم منه ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

حدثني أباي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

[إِنْ مُوسَى قَامَ حَظِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَسُئِلَ : أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ ؟ قَالَ : أَنَا .

(١) سورة النمل - من الآية ١٥ .

(٢) سورة النمل - من الآية ٢٢ .

(٣) سورة الإسراء - من الآية ٨٥ .

فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرِدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنْ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ
الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ] .

ولما التقى موسى بالخضر ، قال الخضر لموسى :

« إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ
عَلِمَكَ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ » .

ولما ركبا السفينة جاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة ، فقال
الخضر لموسى :

« مَا عَلِمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ »^(١) .
سبحانه وتعالى الذى أحاط بكل شيء علماً .

إن قصة موسى والخضر هذه هى قصة هذه الحياة وهذا الكون الذى نعيش فيه ، إنها
قصة تثبت فى صورة عملية واضحة رائعة أن وراء المعلومات والمكشوفات فى هذا العالم
وفى هذه الحياة مجهولات كثيرة ، وأن ما يجمله الإنسان - وأعظم إنسان فى عصره - أكثر مما
يعلمه ، وأن الإنسان دائماً يبنى حكمه على ما يشاهده ويشعر به ؛ ولذلك يخطئ كثيراً
ويتعثر كثيراً ، وأنه لو انكشفت للإنسان حقائق الحياة وبواطن الأمور وعواقبها لتغير
حكمه كثيراً ، ونقض ما أبرم ، فإنه لا إحاطة له بهذا الكون الواسع .

فالحياة غامضة ، وبها أُلغاز لا يستطيع أى إنسان على ذكائه وعلمه أن يحلها ،
والكون واسع فسيح ، لن يستطيع العلم البشرى مهما اتسع وارتفع أن يكشف
غوامضه ؛ لذلك لو منح الإنسان حرية التصرف المطلق لأفسد العالم وأهلك الحرث
والنسل ؛ لأن نظره قاصر ، وعلمه محدود ، وقد خلق الإنسان من عَجَل ، وفُطِرَ على
السرعة وقلة الصبر . لقد اختار الله لتقرير هذه الحقيقة العظيمة التى هى أساس الإيمان
بالغيب أعظم شخصية فى عصره ، والذى أوتى علماً كثيراً ، وخيراً كثيراً ، وهو موسى

(١) رواه البخارى .

عليه السلام ، وتبدأ رحلة موسى مع الرجل الذى آتاه الله من عنده رحمة ، وَعَلَّمَهُ مِنْ لَدُنْهُ عِلْمًا ، فيصطدم علم موسى وفهمه بالأحكام الظاهرة مع واقع الأمر والحقيقة الباطنة التى يجهلها فى ثلاث قضايا .

أولها : يخرق الخضر السفينة التى حملتها وأركبها صاحبها عليها من غير أجر .

ثانيها : يقتل الخضر غلاماً ذكياً لم يُسئِ إليهما ولم يسئِ أبواه .

ثالثها : يقيم الخضر جداراً من غير أجره يتقاضاها فى قرية لم يُصَيِّقْهُمَا أهلها ، ولم يعرفوا حقهما .

تصرفات غريبة من الخضر الذى يتخذ موقفاً لا يقره العقل ، ولا يؤيده المنطق ، ولا يستسيغه الذوق .

ولا يملك موسى نفسه - وهو المؤمن الغيور والنبي المرسل - أمام هذه التصرفات الغريبة إلا أن يتساءل مستنكراً :

﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾^(١)

ولكن الظاهر لنا شىء والحقيقة التى تخفى علينا شىء آخر . وما أعجب الحقائق إذا ظهرت . ويكشف الخضر القناع عن هذه القضايا الثلاث التى كانت موضع دهشة واستغراب موسى ، فيتجلى أن الخضر كان مصيباً ، ومحسناً حكيمياً فى تصرفاته الثلاثة ، وأنه لم يكن مسيئاً فى موضع إحسان ، ولا محسناً فى موضع إساءة .

فقد أحسن الخضر إلى صاحب السفينة بخرقها ، إذ حفظها من الاغتصاب ، فقد كان وراءها ملك يأخذ كل سفينة - صالحة سليمة - غصباً ، فكافأه بذلك على إحسانه ومعروفه .

وقد أحسن الخضر إلى أبوى الغلام بقتله ، إذ كان الغلام فتنة لهما ، كان يخشى أن يرهقهما طغياناً وكُفراً ، فرأى أن بكاء ساعة أفضل من بكاء طول الحياة ، وما بعد الحياة فالغلام عنه عوض ، ولكن لا عوض عن الدين والعافية .

(١) سورة الكهف - من الآية ٧٤ .

وقد أصلح الخضر الجدار وأقامه لأنه كان ليتيمين من أبوين صالحين ، وكان تحته كنز لو تهدم الجدار لانكشف الكنز واختطفه الناهبون ، وبقي الغلامان من غير مال ولا رصيد .

وهكذا يظهر أن صلاح العمل ينفع في الحياة وبعد الممات :

﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾^(١)

وهنا يظهر الفرق بين من يحكم على الظاهر لأنه حجبت عنه الحقيقة ، وبين مَنْ عنده الحقيقة .

وما أعجب الحقائق إذا ظهرت ، وما أبعد الشقة بين الصورة والحقيقة ، وبين الظاهر والباطن ! وما أجراً الإنسان في ادعائه أنه احاط بكل شيء علماً ، وادعائه أنه وصل إلى الحقيقة في كل قضية فيشرع لنفسه ويترك شريعة الله ! وما أبعد الإنسان عن الصواب وسُبُل الرشد حين يتبع هواه .

﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيًا يُغَيِّرُ هُدًى مِّنَ اللَّهِ** ﴾^(٢)

إن العلم البشرى لم ولن ينتهى إلى الحد الأخير ، وصدق الله العظيم العليم حيث يقول :

﴿ **وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** ﴾^(٣)

إن هذه القصة وما تشتمل عليه من روح ومغزى تتحدى التفكير المادى الذى يلح على أن الحياة هى التى فهمها الإنسان ، وعلى أن الكون هو الذى أحاط به الإنسان علماً ، وأن ليست الحقيقة إلا ما تترأى للعيون . وأن حكم الإنسان على الظاهر وقيام الإنسان بالتشريع بادعائه أنه قد اكتمل عقلاً وعلماً ودراسة ، وبلغ إلى أعماق العلم

(١) سورة التوبة - من الآية ١٢٠ .

(٢) سورة القصص - من الآية ٥٠ .

(٣) سورة يوسف - من الآية ٧٦ .

وحقائق الكون ، كلها ادعاءات زائفة باطلة ، وادعاءات فاسدة مضللة . لقد قامت الفلسفات المادية والحضارة العصرية على أساس هذا التفكير ، والاعتقاد بفهم الإنسان كل شيء ، وحُكمه على أساس ظاهر الحياة . وقصة موسى والخضر تنقض هذا الأساس وتهدم هذا البناء ، وتنتهي القصة بقول الخضر لموسى :

﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾^(١)

والتأويل في اصطلاح القرآن الكريم هو الحقيقة . وهكذا يتعجل الإنسان وينكر ويخطيء حتى تتجلى له الحقيقة ويأتي التأويل^(٢).

(١) سورة الكهف - من الآية ٨٢ .

(٢) في رحاب الكون ، مع الرسل والأنبياء ، للمرحوم الدكتور عبد الخليم محمود . وتأملات في سورة الكهف للشيخ أبي الحسن الندوي ومحاضرة للشيخ محمد متولى الشعراوى بكلية الطب - جامعة القاهرة .